من المؤلف

بابل.. اسم يرتبط عند كل منا ببرج بابل. وبلبلة بابل وتحول اللغات والحدائق المعلقة وسميراميس والملك نبوخذ نصر والسبي البابلي ووليمة بيلشاصَّر والكلمات المشهورة «مَنَا مَنَا تَقَيْلُ وَفَرْسِينُ» (دانيال ٥:٢٥) التي ترمز إلى المصير المحتوم وفناء العظمة الدنيوية.

عن كل هذا سمعنا في المدرسة، وقرأنا ونقرأ في الكتب والمجلات، والجرائد تحدثت مراراً بنفسها عن ذلك ولماذا؟ بابل نعم أليس في ذلك غرابة وقدم غامض وخلط في الحكايات إلى درجة أنه ما من شخص ولا يعرف شيئاً عن بابل وهو نفسه ما فهم ما هي بلبلة بابل ومدركاً من هذا التعبير إلى حد ما شيئاً عن بناء برج بابل والاضطراب الأعظم. يقول أحد أبطال الفيلم الفرنسي الكوميدي «الهزلي» المعاصر «الشيطان والوصايا العشر»: «عندما يتوقف الناس عن الالتزام بالقوانين فإن ذلك يعني بابل تقريباً».

بابل تغلغلت فينا حرفياً حتى العظم.

لكن كيف كانت هي بالفعل؟ هل كانت البلبلة البابلية قبيحة الصيت أم أن هذا كله اختلاق؟ هذا هو ما يقوله قراء الكتب عن هذا بالحرص المطلوب. ففي أي حديث لا يدور الكلام على بابل بل على عهد البلبلة البابلية بشكل عام في عهد الاضطراب البابلي عندما عاش نبوخذ نصّر وأولم بيلشاصر، وعن أحداث خمسة وعشرين قرناً مضت. وعن مكان أحداث ما قبل تاريخنا هذا.

كل هذا حصل في البلاد التي تسمى العراق في وقتنا الحاضر، كما سماها العرب الذين حلوا فيها في القرن السابع قبل الميلاد، وهي تقع ما بين نهري الفرات والدجلة، ولهذا السبب أعطاها اليهود قديماً اسم شنعار وهذا يعني الرافدين واليونان ميزوبوتاميا أي ما بين النهرين. فجنوب ما بين النهرين عبارة عن سهل منبسط شكلته الرواسب النهرية، وهنا كما في مصر الواقعة في أسفل وادي النيل أيضاً ولدت في نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد الحضارة أولاً.

وفي حياتنا اليوم نستعمل مراراً كلمتي «حضارة» و «ثقافة» ولكنه خطأ على وجه التدقيق. فالثقافة نشأت مع الإنسان سويةً وستبقى بمقدار ما يبقى الجنس البشري.

أما الحضارة فقد ولدت منذ ٥٠٠٠ آلاف عام وهي عبارة عن مرحلة محددة من تاريخ الإنسانية.

كتب ف. إنكلز «إن الحضارة هي تلك المرحلة من التطور الاجتماعي التي نتج توزيع العمل فيها عن المقايضات بين الأفراد التي تجمعها كلها عملية الإنتاج السلعي التي تصل إلى الازدهار التام وتؤدي إلى التحول الكامل للمجتمع السابق»[1].

وتتميز الحضارة بالتوزيع الاجتماعي للعمل. وانقسام المجتمع إلى طبقات متناقضة واستغلال الإنسان للإنسان ووجود الدولة.

كان السومريون مؤسسوا الحضارة في جنوب بلاد الرافدين والشعب الباقي حتى الآن غامضين من نواحٍ كثيرة، وهكذا مثلاً: من غير المعروف من أين جاؤوا إلى هذه البلاد التي لا يمكن أن تكون محل ولادتهم لأنها نشأت على مرأى من أبصارهم وبمشاركتهم الفعالة.

إن السومريين والأكاديين الساميين الساكنين إلى الشمال منهم أعطوا جنوب الرافدين اسم بلاد سومر وأكاد[أ] وقد حصل ذلك في نهاية الألف الخامسة قبل الميلاد على وجه التقريب.

إن السومريين الذين يعود إليهم الدور الريادي ظهروا في أسفل الدجلة والفرات، وبعد ذلك عرفوا تربية المواشي والزراعة والمعادن، وهذا يعني أنهم مهدوا بهذه الإنجازات في مجال الإنتاج لولادة الحضارة، وعلاوة على ذلك كان السومريون أحد الرواد الذين دجنوا لأول مرة الثور وعرفوا كيفية استخراج وصهر المعادن، ويدل على ذلك الكلمات السومرية «ن» جو «د» أي ثور و «أور دو» أي نحاس المستعارة في كثير من لغات العالم[ب].

ومن خلال الصراع مع الطبيعة طور السومريون والأكاديون قواهم الإنتاجية وخلقوا مصادر ثروة اجتماعية لا سابق لها حتى اليوم.

وتبدلوا هم أنفسهم وغيروا من الجذور مجتمعهم ونشأت عندهم علاقات إنتاجية جديدة وظهرت طريقة إنتاج جديدة للمصالح المادية وضعت بداية للحضارة تلك كانت طريقة الإنتاج التي سماها كارل ماركس بوقته «الأسلوب الآسيوي». لأنه اكتشف أثرها عند بعض شعوب آسيا «في الهند خاصة» والتي اعتبرها أول تكوين اقتصادي اجتماعي طبقي[2]. واستقصيت في الوقت الحاضر بقايا قوية من أسلوب الإنتاج الآسيوي عند شعوب إفريقيا الاستوائية[3] وكان أول طور من تكون الحضارة في مصر القديمة «العصور القديمة، والأسر المالكة الأولى والقديمة في الألفيتين الرابعة والثالثة قبل الميلاد» وفي المجتمع الميكيني، وعند الهيلينيين قبل القرون الثامنة إلى السادسة

أ- سمى السومريون القسم الجنوبي الساحلي بلاد أكاد، والحدود الشمالية بينهم مرت أعلى قليلاً من مدينة نيبور.

ب- من الكلمة السومرية «gu» غو «د» جاءت Ka «كا» وKoπt «قبط» وgb1 و gq «كف» القبطية القديمة والكلمات الروسية القديمة «ومن هنا» كلمة و «Hem» و «Kuh كو» وكل هذه الكلمات تعني ثور - بقرة - ماشية ومن السومرية - الألمانية «إزر» Erz بمعنى نحاس و Pyga رودا.

قبل الميلاد، وفي إيطاليا وروما القديمة قبل القرن الرابع قبل الميلاد، وفي أسبانيا وغاليا «فرنسا» وبريطانيا قبل الغزو الروماني، وفي الهند القديمة «ثقافة هارايّا في العصر الفيدي» والصين القديمة «عصر سيا وشان إن وسي تشجو» وعند كثير من شعوب العالم القديم الرحل «السكيث - الهون - التورك - المغول وغيرهم». والسكندينافيون في عصر الفايكنج والبولونيزيون وألانكا وألمايا والمكسيكيون في أمريكا القديمة... الخ.

وحالياً لا يجوز اعتبار أسلوب الإنتاج الآسيوي آسيوياً، فهو عبارة عن مرحلة عالمية تاريخية التي من خلالها، كما اعتبر كارل ماركس، جاءت جميع المجتمعات المتحضرة، لذلك من الأفضل تسمية هذا التكوين الحضاري الاقتصادي الاجتماعي الأول بالتكوين القديم.

فكل مجتمع قديم وفقاً لظروف منشئه ووجوده وكذلك مراحل تطوره له ملامح فردية خاصة. ولكن المجتمعات جميعها تشترك بها بشكل عام مما يسمح بإرجاعها لعصر واحد، وشكلت أساس اقتصادها وحدة الزراعة «أو تربية المواشي» والصناعة ووحدة المدينة والقرية التي لا تُجزأ، مما أوجد علاقات إنتاجية ملائمة تظهر بشكل علاقات ملكية محددة.

ففي الشكل الآسيوي «السائد على الأقل» كما كتب كارل ماركس «لا يوجد ملكية فرد قائم بذاته وإنما يوجد فقط ما بحوزته، فالمالك الحقيقي الفعلي هو المجتمع وبالتالي توجد ملكية على شكل ملكية جماعية للأرض»[4].

وعرف المجتمع القديم التناقض الطبقي واستثمار الإنسان للإنسان، ففي قوام المجتمع كان الأقرباء مالكوا الأرض يشكلون أساس الإنتاج الذين يدخل في قوامهم فقط الأعضاء من قبيلة الحاكم بينما السكان المحكومون يحرمون من الملكية ويصبحون هم من ملكية الحاكم. وفي المجتمع القديم واجهت طبقتان، بعضهما بعضاً الارستقراطية «العشائرية» القبيلة المكونة للمشاعية التي حافظت على التنظيم الأسروي والغرباء المنتصرون المؤثرون على وضع الموالين والعبيد الذين كانت تستكمل أعدادهم دون انقطاع بالأسرى والغرباء الدخلاء المنقطع اتصالهم لهذا أو لتلك الأسباب بقبائلهم. هؤلاء البيتريد «الارستقراطيين الوراثيين» والعوام في إتيكا القديمة. وعند الإسبارطيين المواطنون والعوام والهلوت «الأقنان في إسبارطة القديمة». وفي روما المواطنون والدهماء. وطوال الأذان وقصار الأذان في جزيرة الفصح. والعظام البيض والسود عند المغول والمنبوذون في الهند القديمة... الخ.

ففي سومر سميت درجات الطبقات هذه بالإجلاء «لو - كو - لا» والأدنياء «أو - كو».

وتحولت تنظيمات الطبقة القبلية العشائرية المسيطرة في الظروف الحديثة إلى دولة فيها دائرة الطبقة الحاكمة ودائرة المضطهدين. وجهاً لوجه طبقة تضطهد أخرى وهذا يعني خلق «النظام» الذي يضفي الشرعية ويوطد هذا الاضطهاد منهياً بذلك صراع الطبقات»[5].

وشكل النظام القديم قوى منتجة وقوة عمل إنتاجية لا نظير لها حتى اليوم وكان ذلك عصراً بطولياً انطلق فيه النشاط الإبداعي للناس وكلما اطلعنا أكثر على ذلك العصر كلما ازدادت دهشتنا، وحقاً، كيف لا نتعجب لو وجدت أثناء التنقيبات البطارية الغلفانية التي استعملها السومريون المهرة للطلي بالذهب، ألا يستحق الإعجاب منظر الشهود الذين صار ثور هايردال ورفاقه الاثنا عشر من أهل جزيرة الفصح سليلي أصحاب الأذان الطويلة والقصيرة الذين خلال ثمانية وعشرين يوماً وبواسطة ثلاثة جذوع مجوفة وحبال ومعارف تقليدية موروثة من الأجداد أقاموا واحداً من التماثيل الحجرية العملاقة المطروحة أرضاً من ثلاثة قرون إلى الوراء بينما مهندسو القرن العشرين الذين طويلاً وبلا جدوى هشموا نسبياً رأس الفنيين المبدعين الذين أقاموا هذه التماثيل.

فالأهرامات المصرية العظيمة ونواويس الملوك السومريين من سلالة أور الأولى، وقصر المتاهة في كنوسوس في كريت ومباني الهيلينيين العملاقة «السيكلوبية» و «Tonocbi» الاترورية وكثبان قبور السكيثيين وطرق الأنكا وهياكل المايا والأزتيك في المكسيك وخرائب زيمبابوي الهائلة ومدرج بعلبك وأوثان جزيرة الفصح وفنون البينيين هذه بعض من شواهد المجتمع القديمة التي تثير حماس وإعجاب أناس القرن العشرين.

وكانت منجزات الإنسانية «البشرية» في ذلك العصر لا تقل تأثيراً في مجال الثقافة الروحية وبخاصة في ذلك الوقت حيث ظهرت الكتابة وخلقت ملحمة جلجامش والإلياذة والأوديسة والرامايانا والماهابهارتا وشو- تزن وشي - تزن والفيدا والأساطير الاسكندنافية والمثيولوجيا اليونانية. وكل هذه الذخائر الثقافية هي موضوع فخر الجنس البشري وجدت عند فجر الحضارة وعند فجر حضارتنا وأسلافنا وليس أياً من الوافدين الغامضين الذين نقرأ عنهم الآن مراراً مؤلفات «التاريخ الكوني» بشكل مبسط.

مات النظام القديم في سومر تحت أعباء التناقضات الذاتية وتحت ضربات الثورة الاجتماعية والمحتلين، ولم تستطع القوى المنتجة المكونة للمجتمع السومري القديم أن تتطور إلى أبعد ضمن أطر أشكال الملكية القديمة السائدة فيه، هذه التي انحلت في ملكية زعماء الارستقراطية الضيقة التي ماتت قبلاً. ولكي تدعم وتطيل بقاء سيادتها الطبقية التي لا تطاق على الجماهير الشعبية كانت مجبرة على اللجوء إلى طلب مساعدة النظام الاستبدادي لملوك الأسرة الثالثة في «٢١٣٣-٢٤ ق.م»

وعندما سقط هذا النظام سقط أيضاً النظام القديم في سومر ومعه سوياً اضمحل الشعب السومري تدريجياً حيث اندمج في أوساط الساميين الذين عمروا البلاد.

وفي جنوب بلاد الرافدين سادت وسيلة إنتاج جديدة قديمة سيأتي الحديث عنها أدناه.

هذه الوسيلة هي ذلك النظام الذي يسمونه عادة نظام الرق المعروف جيداً في اليونان وروما في عصر الكلاسيكية القديمة. ولكن جنوب النهرين تطور في ظروف مغايرة عن ظروف المجتمع اليوناني - الروماني. فقد كانت سومر وأكاد زمناً طويلاً جزيرة في محيط من الشعوب المستمرة بالحياة في ظروف النظام القديم والتي تعتدي باستمرار على ما بين النهرين. وكان هؤلاء أولاً قبائل العموريين «قبل كل شيء» والعيلاميين الذين سوياً سحقوا دولة سلالة أور الثالثة السومرية، واحتلوا البلاد مؤسسين على أرضها عدة دول في النصف الأول من القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ووحد حمورابي ملك بابل إحدى الدول التي أنشأها العموريون والبلاد التي أخذت من اليونان لاحقاً اسم البابلية نسبة إلى بابل التي أصبحت الآن المركز السياسي لجنوب بلاد الرافدين، بلاد سومر وأكاد، كان العموريون في فترة احتلالهم سومر وأكاد فقط شعباً قادماً من النظام القبلي على الحضارة ولكنهم أصبحوا أسياداً لبلاد وأحسوا بسرعة بأن عندهم القدرة على النفوذ القوي لتطوير حضارتهم، كما أن سيادتهم لم توقف تطور شعب جنوب الرافدين القديم، غير أن هذا بمجمله أدى إلى إحياء وبعث بعض رواسب النظام القديم.

وتشهد على ذلك شريعة حمورابي ملك بابل المشهورة «١٧٩٠ ق.م» وأعطت هذه القوانين القضائية شكلاً جديداً لعلاقات اجتماعية قديمة، ورسمت بدقة الحدود بين الأحرار والعبيد وهما الطبقتان الأساسيتان للمجتمع القديم.

ولكن إلى جانب ذلك بقي فيها تقسيم طبقة الأحرار إلى طبقة الأعيان «العوالم - Awalum» ورؤساء الأعيان - مار عوالِم Awalim - Mar» والأدنياء «المساكين «الموشكينو Muskenu»» فالأعيان وهم الارستقراطيون المتمتعون بكامل الحقوق المدنية كانوا أحفاد العموريين البابليين الغزاة. أما المساكين الأدنياء «الدهماء» فهم السكان المحليون الأحرار. من البابليين المغلوبين أحفاد الأكاديين الساميين والسومريين المتسامين الذين كانوا بالضبط حاملي العلاقات القديمة الجديدة.

واستمرت قوانين محتفظة بقوتها على امتداد التاريخ البابلي بالكامل، ولكن المجتمع البابلي تغير، وإلى جانب هذا تغيرت تفسيرات القوانين وماتت معايير الحقوق التي فيها تشديد على الفروق بين العوالم والمساكين وكذلك حفظت الرواسب القديمة الأخرى، ولكن استمرت حيةً وتطورت المعايير البابلية التي أقرت الأنظمة القديمة التي منها تحددت الحقوق المكتسبة للقوانين وسقطت سيادة العموريين في عام ١٥٩٥ ق.م وجاءت بدلاً منها سيادة بربرية جديدة وهي سيادة الكاشيين الذين استمرت سيادتهم حتى عام ١١٧٦ ق.م وترافقت كذلك بانتكاسات الأنظمة القديمة. غير أن الكاشيين لم يستطيعوا إرجاع تطور المجتمع البابلي القديم إلى الوراء.

وفي ذلك الوقت تغير العالم القديم في دول غرب آسيا المجاورة وبالدرجة الأولى في دول الهلال الخصيب[أ] وأصبحت بابل جزيرة معزولة ووصل مجتمعها القديم إلى درجة النضج. وعند نهاية القرن الثامن قبل الميلاد ظهرت فيه أولى بوادر الأزمات القادمة التي أعربت عن نفسها جلياً خلال المئتي عام اللاحقتين، وهي الفترة المكرس لها هذا الكتاب.

وهكذا يدور الحديث على أحداث وأشخاص من خمسة وعشرين قرناً من الماضي القديم. فمن أين نعرف عنهم إذن؟

مع أن ما يجري على أرض العراق من حفريات على التوالي منذ عشرات السنين معروف للجميع[6].

سأتحدث عما هم يعرفون ليس أبعد من ذلك. فزوار المتحف الوطني للفنون الجميلة المسمى أ. س بوشكين في موسكو والأرميتاج في سان بطرسبورغ لا يتوقفون عادة أمام واجهات العرض المعروضة فيها ألواح غير نظيفة من الغضار المجفف أو المشوي المغطاة بصورة رديئة بكتابة مسمارية واضحة، ولكن هذه الألواح عمرها من ألفين حتى خمسة آلاف عام. فقد وجدت هذه الألواح منذ أن بدأت الحفريات في منتصف القرن الماضي «القرن العشرين» في خرائب مدن سومر وأكاد وآشور وبابل ويستمر العثور عليها بأكوام سليمة، وفي الوقت الحاضر يصل عدد تلك الألواح الموجودة في كثير من متاحف ومجموعات العالم إلى نصف مليون لوح.

واحتوت هذه الألواح على نصوص أدبية ودينية وعلمية وكتابات الملوك ولكن الكثرة الساحقة منها عبارة عن وثائق معاملات: كمبيالات، وإيصالات وسندات وفواتير وعقود إيجار وسندات تمليك، وعلم محاسبة، ومحاضر وقرارات قضائية «أحكام» وشهادات شهود ومراسلات عمل وذات طابع شخصي، وكل من هذه الوثائق مكتوب بلغة حقوقية جافة وبصياغة نمطية واحدة مأخوذة على حدة يقال بصدق إنها قادرة على إثارة الكآبة حتى عند الاختصاصي «الخبير» ولكن تستحق بجدارة إقامة اتصال بين الوثائق المبعثرة والتصرف بشكل أقرب إلى الأشخاص المذكورين فيها كلوحة تتبدل، وبدأت اللوحات تتحدث بملء صوتها وسكان بابل يمثلون أمامنا كأنهم أحياء بأفراحهم وأتراحهم ونجاحاتهم وإخفاقاتهم وأعمالهم وأفكارهم.

أ- هكذا تسمى فلسطين وفينيقيا «لبنان تماماً» وسورية وميزوبوتاميا التي تمتد بشكل هلال من البحر المتوسط حتى الخليج العربي المؤلف يوضح هذا للروس وليس لنا. المترجم.

وبهذا الشكل نحن نعرف عن عهد البلبلة البابلية من أقوال البابليين أنفسهم الذين كتبوا دون شك ما يقوله الرواة الأجداد الأولون عن أنفسهم لأحفادهم أكثر بكثير مما فضلوا السكوت عنه.

ولكن عن بابل والبلبلة البابلية لم ينسَ الناس في حين من الأحيان أبداً وتذكروا قبل وقت طويل من العثور على الألواح الطينية وتعلموا من جديد قراءة الكتابة المسمارية. وأجيال كثيرة قرأت عن بابل وأعاجيبها في الكتاب المقدس، ومن الكتاب اليونانيين والرومانيين هيرودوت وكزينوفون وديودور الصقلي وأريان وسترابون وغيرهم، والروايات هذه تعود إلى الناس الذين بأم أعينهم شاهدوا بابل واختلطوا مع البابليين وهذه شهادة شهود عيان استوعب كل منهم مشاهداته وتجاربه وما سمعه وحسب شخصياتهم وأخلاقهم ومواقفهم تجاه بابل والبابليين.

وفي العمل على تأليف هذا الكتاب استخدمت جميع هذه المصادر، وبالطبع ليس صفحاتها التي لا يمكن ولو على وجه التقريب الإحاطة بكل المعلومات الهائلة عن بابل في عهد البلبلة، وعلاوة على ذلك لم أضع أمامي مهمة مماثلة فإن هدفي متواضع أكثر من ذلك بكثير، ودون الإقلال من المستوى العلمي العملي قدمت نبذة سياسية واجتماعية اقتصادية مبسطة وتاريخاً أدبياً عن المجتمع البابلي على مدى مئتي عام منذ عام ٦٨٩ وحتى عام ٤٨٢ ق.م الفترة التي نالت بالعلم اسم البابلية الحديثة. تروي كيف عاش وبماذا عمل أناس ذلك العصر الساكنين في بابل.

فكم نجحت في أداء هذه المهمة؟! إني أدع الحكم للقراء. في الختام أرى من واجبي أن أشكر تيموفي ايساييفيتش شاركو رودسكي وديمتري غريغوروفيتش ريدر اللذين قدما مساعدة كبيرة في العمل لتأليف هذا الكتاب.